مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 15، عدد رقم:03، سبتمبر2026، صص: 113 - 120
تاريخ الاستلام(2025/11/20)تاريخ القبول (2026/09/15)تاريخ النشر (2026/09/30)

التّوريط والاستدراج اللّغويّ في رسائل الجاحظ

The Linguistic Entrapment and Luring in al-Jahiz's Epistles

عبد السّلام بوفار
جامعة الجزائر-2- (الجزائر)، abdssalam.boufar@univ-alger2.dz

ملخص:

استعمل الجاحظ أساليب لغويّة مختلفة، من أجل إقناع المخاطَب بقوّة حججه، وصدق نتائجها، وارتكز الحجاج لدى الجاحظ على خلفيّته الاعتزاليّة، وموسوعيّته الكلاميّة، وفي هذا المقال نكشف عن عمليّة التّوريط والاستدراج اللّغويّ الّتي جذب بها الجاحظ، الخصوم والمخاطبين إلى دائرة قناعاته، وقد جاء التّوريط لديه بعدّة آليّات كالاستفهام، والذّمّ فيقالب المدح، والاستدلال المنطقيّ، والتّمثيل، والّتي طبعت أغلب الرّسائل الجاحظيّة.

كلمات مفتاحية: الاستدراج، التّوريط، رسائل، الجاحظ، الحجاج، النّتيجة

Summary:

Al-Jahiz employed various linguistic strategies to persuade his addressees of the strength of his arguments and the validity of their conclusions. His argumentative discourse was grounded in his Muʿtazilite intellectual background and his encyclopedic knowledge of theology. This article examines the processes of linguistic entrapment and inducement through which al-Jahiz drew his opponents and interlocutors into the sphere of his own convictions. These processes operated through several mechanisms, including questioning, blame expressed in the guise of praise, logical reasoning, and exemplification, all of which characterize a substantial part of al-Jahiz's epistolary writings.

المؤلف المرسل: عبد السّلام بوفار، **الإيميل:**abdssalam.boufar@univ-alger2.dz

Keywords:inducement, entrapment, epistles, al-Jahiz, argumentation, conclusion

1. مقدمة:

بلغت الدّولة العبّاسيّة شأوها في القوّة والتوسّع، وفي الحضارة والمدنيّة، وكثرت مجالس التّرف واللّهو، توازيها مجالس أخرى يدافع فيها المتكلّمون عن الدّين ويقيمون الحجّة على الخصوم من الملل والنّحل الأخرى، وبرز الجاحظ كرأس من رؤوس الاعتزال يدحض أقوال المذاهب المخالفة بفكر موسوعيّ، وبلغة فخمة تخاطب العقول وتستدرج المتلقّي إلى الاقتناع، وقد تلوّن حجاج الجاحظ بالمغالطة وصرف الألفاظ إلى غير معانيها، والّتي لجأ إليها لما فيها من ردّ دون تهمة، وحطّ من الغير دون محاسبة، والتّوريط والاستدراج جزء من الاستراتيجيّة الإقناعيّة الجاحظيّة، فما هي آليّاته داخل الرّسائل؟

ونهدف من خلال هذا البحث إلى الكشف عن محمولات خطاب الرّسائل، وتلاعب الجاحظ بالكلمات كخطّة إقناعيّة ووسيلة حجاجيّة.

2التّوريط:

سُمّي الجاحظ بدائرة المعارف، فهو لم يترك فنّا إلّا وتحدّث عنه، ولا علما إلّا وأسال حبره فيه، فتجده مع علماء الكلام ينافح بالكلمة عن الدّين، ويبيّن المستحقّ للإمامة ويردّ على الرّافضة والمشبّهين، كما تجده واعضا في مجالس الصّالحين، ومؤرّخا للأقوام من الأوّلين، وأيضا هو المدافع عن القيان والغلمان والنّساء، والذّاكر لفضل الكلام عن الصّمت والبطن على الظّهر، والمنتصر للسّودان على البيضان والمبيّن لأنواع النّبيذ وصفة أصحابه، وفي كلّ ذلك يحشد الجاحظ ما أوتي من بيان، وقوّة لغة، ووسائل إقناع، ومن بين هاته الوسائل التّوريط، وهي استراتيجيّة يسلّم الجاحظ فيها الكلمة للمخاطَب، ويحيطه بالأمان، حتّى يبوح ويتورّط « يسعف الاعوجاج، ويصفّق له، ويمدّه بالوسائل التي تجعله أكثر اعوجاجا، حتّى يكشف نفسه بنفسه.»[1]، يمدّ الجاحظ الخصم بالحجج والبراهين بغية توريطه أكثر، فتراه يمدح الخصوم، ويذكر محاسنهم حتّى تختلط عليك الأفكار، فلا تستطيع الإمساك بموقف الجاحظ، ويقيم الحجّة لمن يخالفه الرّأي حتّى تظنّه قد تنازل عن معتقداته، وانسلخ من مذهبه، وحينا آخر يُنافح عن الأفكار الشّاذّة والباطلة، حتّى تلتبس عليك الآراء، وفي كلّ هذا هو يستدرج غيره إلى دائرة أفكاره، ويسوقهم طوعا إلى الإذعان لحججه وأحكامه، وقد

استعمل الجاحظ التّوريط في الكثير من رسائله، خاصّة رسالته التّربيع والتّدوير، وقد اعتمد على عدّة استراتيجيّات في ذلك نذكر منها:

1/2الاستفهام:

استعان الجاحظ بالاستفهام الّذي فيه مزيّة الاستدراج، حيث يقود المخاطَب خطوة خطوة إلى ما يريد، **يقول:** << وهل في تمامك ريب حتّى يُعالج بالحجّة؟ وهل يَرُدُّ فضلك جاحد حتّى يُثبت بالبيّنة.

وهل لك خصم في العلم أو ندّ في الفهم، أو مُجارٍ في الحلم، أو ضدّ في العزم؟

وهل يبلغك الحسد أو تضرّك العين؟ أو تسمو إليك المنى أو يطمع فيك طامع، أو يتعاطى شأوك باغٍ؟

وهل غاية الجميل إلّا وصفك، وهل زين البليغ إلّا مدحك، وهل يأمل الشّريف إلّا اصطناعك؟ وهل يقدر الملهوف إلّا غياثك؟ وهل للطّلّاب غاية سواك؟ وهل للغواني مَثَلٌ غيرك؟ وهل للماتح رجز إلّا فيك، وهل يحدو الحادي إلّا بك؟>>[2]، هنا يُمدّ الجاحظ أحمد بن عبد الوهّاب بكلّ صفات الكمال كنوع من المغالطة، فيُجمّل القبيح ويستدعي كلّ صفة جميلة كي يُوهم مخاطَبه بأنّه صاحب حظوة ومكانة لديه، وهو في كلّ ذلك يجرّه أكثر إلى دائرة النّتيجة الكلّيّة للرّسالة وهي الصّعود به في سلّم المدح من أجل أن يكون السّقوط أكثر إيلاما، والمقتطف مليء بسلسلة من الاستفهامات غير الحقيقيّة الّتي تطوّق بحلقاتها أحمد بن عبد الوهّاب، والجاحظ لا يهمّه جواب المخاطَب عن هذه الأسئلة بقدر ما يهمّه المسلك الّذي رسمه له في الأخير، وهو الحطّ منه والانتقاص من قدره، وهو لا يريد اختبار معارف خصمه ولا علمه، بل يريد أن يبيّن جهله وقلّة زاده العلميّ، ويكثر عليه الأسئلة كي تتلبّس لديه المعاني وتختلط عليه الإجابات فلا يكاد يُبين، وقد بدأ الجاحظ بالسّؤال: هل في تمامك ريب حتّى يُعالج بالحجّة؟ مستغلّا دور الأداة هل في جعل المتلقّي يعقد مقابلة بين معنيين أحدهما صحيح والآخر خاطئ، وجاءت كلّ الاستفهامات التّالية باستعمال هل لوضع أحمد بن عبد الوهّاب في حيرة من الإجابة، فلا يكاد يمسك المعنى الصّحيح، لأنّ الجاحظ يعبث بالكلمات، ويخلط الجدّ بالهزل، ويرفع خصمه حتّى يتجاوز به الحدّ ليهوي به في مكان سحيق، والجاحظ قد جعل من خصمه ورقة في مهبّ ريح سُخريّته يقلّبها كيف يشاء، ويمنحه من الصّفات معتمدا على قوّة لغته وحسن تصويره، مستغلّا ما في الاستفهام من التّقرير والإثبات، وكلّ

استفهام من الاستفهامات الموجودة في المقتطف، عبارة عن حجّة لنتيجة مغايرة تماما، فهو يرسم للمتلقّي صورة فائقة الحُسن هذه الصّورة الّتي سوف تنعكس إذا شوهد الأصل وعُرف أحمد بن عبد الوهّاب في الواقع، فيفهم المتلقّي حينها بأنّ مدح الجاحظ الملفوف بالاستفهامات هو قصر مشيد من السّخريّة ظاهره فيه الرّحمة وباطنه العذاب، وقد جمعت الاستفهامات مجموعة من الحجج المتساوقة الّتي تخدم نتيجة جزئيّة هي المدح، ونتيجة كلّيّة من الرّسالة وهي الذّمّ والتّهكّم من شخص أحمد بن عبد الوهّاب، يقول الجاحظ : «حدّثني صديق لي قال: قلت للعتّابي: ما البلاغة؟ قال: كلّ من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبسة ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللّسان الّذي يروق الألسنة، ويفوق كلّ خطيب، فإظهار ما غمُض من الحقّ، وتصوير الباطل في صورة الحقّ »[3]. والمعنى من هذا القول أنّ الجاحظ يميل إلى هذا النّوع من الأسلوب والّذي فيه نوع من المغالطة والإيهام، فقد جعل من أحمد بن عبد الوهّاب مادّة فكاهيّة ووضعه في قالب هزليّ بنى أركانه على كمّ من الاستفهامات غير الحقيقيّة، والّتي قامت بعدّة أدوار حجاجيّة داخل الرّسالة يمكن حصرها في الاستدراج، وتقرير الصّفات الّتي نسبها الجاحظ لخصمه، والإيهام والمغالطة والإيحاء ما جعل من أسئلة الجاحظ عبارة عن ألغاز تحتاج إلى إعمال للذّهن، وتجنيد للمعارف للإجابة عنها، كما أنّ هذه الأسئلة المتتالية المكرّرة تجعل الخطاب أكثر قوّة حجاجيّة، ذلك أنّها تجعل المخاطَب- أحمد بن عبد الوهّاب- في حيرة أكبر، وهو ما يهدف إليه الجاحظ، وكلّ درجة في المدح هي في الحقيقة من دركات الذّمّ كما أنّها تدفع المتلقّي الّذي يعرف حقيقة أحمد بن عبد الوهّاب إلى تتبّع كلّ أطوار الرّسالة لمعرفة المعنى الّذي يقصده الجاحظ حقّا، فيكون الجاحظ بذلك قد أوقع الجميع في حيرة، هذا التّيه الّذي لن يزول إلّا بمعرفة العداوة الّتي كانت بين الجاحظ وأحمد بن عبد الوهّاب، والقراءة الفاحصة لسخريّة الجاحظ.

ويمكن وضع سلّم حجاجيّ للصّفات الّتي رسمها الجاحظ لمخاطَبه، وما يريده في الحقيقة أي الصّورة الحقيقيّة لأحمد بن عبد الوهّاب كالآتي:

مدح أحمد بن عبد الوهّاب



النّتيجة ذمّ أحمد بن عبد الوهّاب

2/2التّوريط باستعمال الذّمّ في قالب المدح:

من براعة أسلوب الجاحظ أنّه يخلط الجدّ بالهزل، فيرسم للمخاطَب صورة ناصعة البياض، تتوارى خلفها صورة قاتمة شديدة السّواد فيصف القينة واستدراجها لجلّاسها وصفا بديعا، ويمنحها من صفات الجمال والعذوبة، ويبرّر لها فعلها ويمدّها بالحجّة على خطئها، وهو في كلّ ذلك يسلك نوعا من المغالطة، ويُلبسها ثوبا من الوهم، لأنّه بذكره لمزالق العشق، ومصارع العشّاق، يحذّر ضمنا من كيد القينة، ويدفع إلى تجنّب استدراجها، فيكون بذلك قد ورّطها فأمدّها بكلّ صفات الجمال الظّاهريّ، ليبيّن ما تُخفي من حيلة وخداع، وفي رسالة البغال، يمدح البغال في أوّل الرّسالة, ويذكر أخبارها وتفضيل الأقدمين لها، حتّى إذا تمكّنت الحجّة للبغال من نفوس المخاطَبين، هدّ أركان هذا البناء، وأسهب في ذمّها وذكر عيوبها وعيوب الرّاكبين عليها، فورّطهم في الاقتناع بقيمتها وتصنيفها مع الخيول والإبل في فضلها والانتصار لها حتّى يُخيّل للمخاطَب أنّ الجاحظ مادح للبغال محبّ لها. وفي رسالة مفاخرة الجواري والغلمان يقيم حوارا افتراضيّا بينهما، ويزوّد كلّ واحد منهما بصفات الفخر، وبدواعي التّميّز بكمّ من الحجج ما يعجز حتّى الغلام والجارية عن الإتيان بمثلها، وهو في كلّ ذلك يبيّن فساد عملهم وسوء صنيعهم، وفي رسالة مناقب التّرك يذكر الجاحظ الصّفات الّتي تميّز التّرك عن غيرهم من الأمم من شجاعة وإقدام وإقبال في المعارك، وحسن قيادة في الحرب، وحسن سياسة في السّلم، لكنّه يحصر وجودهم في أعمال معيّنة دون غيرها، وكأنّهم لا يتقنون إلّا هاته الأعمال ولا يجيدون إلّا ركوب الخيل، حتّى أنّ الجاحظ وصف بقاءهم فوق ظهور الخيل أكثر من جلوسهم على الأرض. وفي رسالة مدح النّبيذ وصفة أصحابه، يبدو وكأنّ الجاحظ واحد منهم، يمدح النّبيذ وجلساته والخمر وحالاته، والمشروب ونوباته، ويصوّر نشوة النّفوس وراحتها ورخاء البال، ويبيّن مراحل السّكر ودرجاته في وصف دقيق بديع، ويقوّض الجاحظ في رسالة أخرى وهي رسالة " الشّارب والمشروب"، ما جاء في رسالته هذه، فيبيّن حال الشّاربين من ضياع للعقل والدّين، وتضييع للحقوق، وبعد عن طريق الصّالحين.

1/3التّوريط بالاستدلال المنطقيّ:

لعلّ أهمّ رسالتين قام فيهما الجاحظ باستدراج المخاطَب عن طريق خطّة منطقيّة، تقوم على مجموعة من الاستدلالات الّتي تجعل المتلقّي يصل إلى النّتيجة بنفسه، بعد أن يكون قد وقع في شراك المنطق المعتزليّ رسالة الرّدّ على النّصارى، ورسالة حجج النّبوّة، ولعلّ الجامع

بينهما هو أنّ المخاطَب واحد، وهم الأقوام من الملل الأخرى، حيث كان الجاحظ في خطابه لغير المسلمين، يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويخاطب فيهم العقل، ويستثير فيهم الفهم، ببناء حجاجيّ منطقيّ محكم، يجد فيه الخصم نفسه قد تورّط هو أيضا في بنائه، ورصّ لبناته، ففي رسالة الردّ على النّصارى ينطلق الجاحظ من شبهات النّصارى و طعنهم في عقيدة الإسلام، ثمّ أتى على مسائلهم مسألة مسألة، وساق لهم من الحجج والأدلّة ليطرح قضاياهم على النّحو الّذي يريدونه، ومن هنا يبدأ التّوريط الجاحظيّ، حيث يمنح لهم الأمان، ويبعث فيهم الاطمئنان، فتستكين نفوسهم، وتفتح آذانهم لما يأتي من الخطاب يقول : «وسنقول في جميع ما ورد علينا من مسائلكم، وفيما لا يقع إليكم من مسائلهم، بالشّواهد الظّاهرة والحجج القويّة،، والأدلّة الاضطراريّة»[4]، ثمّ يقوم الجاحظ بإلقاء مجموعة من الإشكالات والأسئلة، والّتي هي في الحقيقة استدراجات، وسَوْقٌ بقوّة الحجّة إلى درجة الإذعان، ويبيّن عوار مذهبهم عن طريق التّلميح والإيحاء، وفي رسالته حجج النّبوّة، يرى الجاحظ أنّ سبب الاجتماع بين النّاس هو الاختلاف الحاصل بينهم في الطّباع والأخلاق كما في الحرف والصّناعات والأذواق، ثمّ يتحدّث عن الأشياء الثّابتة الّتي لا يمسّها تحويل ولا تغيير، من ترتيب الأيّام والأشهر، ثمّ يعود للحديث عن وجوه الاختلاف في اختيار النّساء والأصحاب وغيرها من أمور الدّنيا، ليصل إلى الاختلاف الحاصل حول التّصديق والتّكذيب ببعثة النّبيّ الكريم، ليذكر بعدها حال النّصارى واليهود والرّافضة، ثمّ يأتي على الأسباب الّتي يسخّرها الله فتكون عونا للشّهرة والتّوفيق أو سببا للزّوال والهلاك، ويبيّن بأنّه حينما تصير الحال إلى الضّعف تحتاج إلى التّجديد وبعث الحياة فيها، وهي حكمة إرسال الرّسل على رأس كلّ فترة من الزّمن، ليذكّروا النّاس بخالقهم، ويبعثوا روح التّوحيد في قلوبهم، ليصل إلى الحكمة من إرسال النّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

من خلال هذا الرّبط المنطقيّ، والتّسلسل التّاريخيّ، يقوم الجاحظ بالاستدارج، وتطويق الخصوم من الملل الأخرى بحبال الحقيقة، ويجعلهم يندمجون في طرحه دون مواجهة، وهم يعلمون صدق ما ذكره، وصحّة ما نقله، فيصعب عليهم حينها الدّحض أو الرّدّ، وهذا ما يلزمهم بقبول الخطاب القادم، والاقتناع بمحمولاته، والرّضى بنتائجه

4-خاتمة:

الاستدراج والتّوريط في رسائل الجاحظ، كثير تعدّدت وسائله وآليّاته، ويكشف لنا عن شخصيّة شموليّة، بخطّة لغويّة واضحة، تعرف أثر الكلمة في تغيير القناعات، وتهذيب النّفوس، والرّدّ عن الباطل، والانتصار للحقّ، وقد اختار الجاحظ الإيماء والإيحاء والاستدراج، لما فيه من إعمال للعقل، لأنّ المعنى معها ينكشف حينا ويتوارى أحيانا، وأيضا لمناسبتها للسّخريّة الّتي عُرف بها الجاحظ، وأيضا لجعلها المخاطَب يندمج في العمليّة الحجاجيّة، ويسهم في بناء الحجج، والوصول إلى النّتائج.

5. الإحالات والهوامش:

1- العمري محمّد، البلاغة الجديدة بين التّخييل والتّداول، أفريقيا الشّرق، المغرب، 2005، ص130.

2-الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق علي أبو ملحم، الجزء الثّالث، الطّبعة الأخيرة، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت لبنان، ،2002، ص81.

3-الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتّبيين، تحقيق عبد السّلام هارون، الجزء الأوّل، الطّبعة السّابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر،1998، ص113.

4- الجاحظ، الرّسائل، الجزء الثّالث، ص308.

5- ابن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد، الجزء الأوّل، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1939، ص68.

6- الجاحظ، الرّسائل، الجزء الثّالث، ص 37.

7- الجاحظ، الرّسائل، الجزء الثّاني، ص409.